النظر النصي في نماذج من التراث العربي

أ. بشار إبراهيم
أستاذ مساعـــد
جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي-

الملخص :

تتنوع قراءة التراث اللغوي العربي بين مقدس له ومقوض لأركانه ومتوسط ارتضى- الموازنة والمقاربة، وليست هذه القراءات بمعزل عن الخلفيات الابستمولوجية والإضافات التأويلية التي تسطر أفق كل باحث تأصيلا وتوصيلا لأن كل مقولة تراثية يمكن أن تُقرأ بطريقة تختلف. وقد حُكم على الحضارة العربية بأنها حضارة النص، وبغض النظر عما تنطوي عليه هذه الكلمة من تأثيرات جانبية فإن المتصفح لكتب التراث يتحسس استحضارا للنص عبر زوايا عدة ومدارك شتى. وفي هذه المداخلة قراءة نصية بسيطة لبعض ما تركه الجرجاني والقرطاجني والزركشي في مقاربتهم للمنجز اللغوي.

يمثل التراث اللغوي العربي حلقة مهمة في تاريخ الحضارة الإنسانية، ونحن لسنا بصدد تبرير هذه الحقيقة أو الدفاع عنها، لكن الذي لا مناص منه أن مرد هذا النضج والرقي يكمن في المعجزة اللغوية الخالدة؛ إذ مثل القرآن الكريم محور الحضارة العربية ومنه انطلقت كل محاولة اجتهادية، وانبثقت جل النظريات المعرفية، وعليه قامت علوم العربية وتعاقبت.

وإذا كان مصطلح النص ومفهومه لم يردا غرضا ولا عرضا في الأنحاء الغربية التقليدية.(1) فإن ذلك لا ينطبق على التراث العربي؛ إذ وجدت مصطلحات أخرى قاربت مفهوم النص ودلت عليه ضمنيا مثل البيان والنظم والمنوال(2)،بل قد حظي مصطلح النص بتعريف مستقل لدى الشريف الجرجاني يقول " النص ما ازداد وضوحا على الظاهر لمعنى في نفس المتكلم وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى (...)" أو هو "ما لا يحتمل إلا معنى واحدا وقيل مالا يحتمل التأويل "(3) وإن كان لا يطابق المفهوم الحديث للنص. و أكثر من ذلك يهتدي المتفحص لعلوم العربية الشغوف لاستكناه ما خبأته كتب القدامى، إلى محاولات جادة في النحو والبلاغة والنقد والتفسير وعلوم القرآن،وهي محاولات قد قاربت وتقاطعت مع ما أفرزته لسانيات النص؛ من ذلك على سبيل المثال لا الحصر الحديث عن ترابط الجمل وما يتصل به من قضايا العطف والحذف والوصل والفصل، والعلاقات بين أجزاء القصيدة وربط بداياتها بنهاياتها، وتماسك الآيات والسور ومناسبتها لما قبلها وما بعدها، والارتكاز على السياق وملابساته مثل: أسباب النزول بالنسبة للنص القرآني، والمناسبة بالنسبة للقصيدة، ومقتضى الحال الذي يحدد المقال، وتأويل مقصدية المتكلم، وافتراض مقبولية السامع في الفعل التواصلي، مثلما تحدث الجرجاني والجاحظ.

ولن نسهب في الحديث عن هذه الأمور وغيرها؛ بل سننتقي نماذج عالجت نصوصا متنوعة بدءا من اللغة العادية وصولا إلى البيان القرآني وما تضمنته هذه النصوص من خصوصية البناء واللحمة استقرأها ثلة من علمائنا لمحنا في تراثهم ما يتجاذب مع ما توصل إليه علماء لسانيات النص.

-1. النظم عند الجرجاني:

استطاع عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، أن يعيد صياغة النحو العربي وفقا لمعطيات جديدة ومقاصد جليلة لم تكن مستساغة لدى النحاة القدماء، وتبلورت أفكاره في نظريته المسماة بالنظم. هذه النظرية ليست خرقا للنحو التقليدي أو نبذا لما قرره النحاة؛ إذ إنها تنطلق من النحو وتتأسس عليه فـ«ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَتْ فلا تزيغ عنها، وتَحفَظ الرسوم التي رُسمت لك فلا تخل بشيء منها»(4).غير أن الجرجاني لم يتوقف عند هذا الحد؛ بل راح يتتبع الفروق بين التراكيب وما ينشأ عنها من فروق في المعاني والأغراض والمقاصد، فشأن الناظم «أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه»(5)، ثم يختار منها الأنسب لتعبيره، والأقدر على توصيل مقصده، والأوفق للمقام الذي يتحدث فيه. فإذا كان النحاة يقتصرون على الوصف الدقيق لعناصر الجملة ولا يلتمسون الفروق الدلالية الدقيقة بين الأدوات والصيغ وأحوال الكلم والتركيب، فإن الجرجاني قد استطاع أن يشَخِص تلك الفروق بنظرة نحوية وبلاغية مستقصيا المعاني المحتملة للتركيب حيث يقول «إنّك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلتها تتبع بعضها بعضا من غير أن تتوخى فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئا تدعي به مؤلفا، وتشبه معه بمن عمل نسجا»(6). ومما تجدر الإشارة إليه أن الجرجاني لم يقصر حديثه عن كيفيات تأليف الجملة المفردة؛ بل تناول مسائل لا يمكن أن توصف إلا في إطار بنية أكبر، ولتكن نصا.

فمن ذلك إشارته السريعة للإحالة، وإفاضته في الحديث عن الحذف، والفصل والوصل، والتعريف والتنكير، والعطف، وغيرها مما يحقق تماسك النص، سواء أكان ذلك بقصد أم بغير قصد.

وقد أفرد الجرجاني بابا كاملا للفصل والوصل، ويُعْنَى في الوصل بمواضع ربط الكلام من قطعه ومواطن استئناف الحديث من استمراره، ولا يخفى على أحد أهميته في نسج الكلام وإحكامه وتأدية الغرض وإيصاله. فـ«البلاغة العربية إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام».(7) ولئن أبعد النحاة القدامى باب الفصل

والوصل من النحو، وعَدوه مبحثا بلاغيا شأنه في ذلك شأن مباحث علم المعاني، فإن البلاغيين أمثال الجرجاني والسكاكي قد أفاضوا فيه وقننوا له حدودا ومواضع استحسانه واستهجانه وضرورته وامتناعه. وهم في هذا إنما يتحدثون عن ترابط الجمل لا الكلمات، فالناظم «ينظر في الجمل التي تُسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل (...) ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله».(8) ولعل مبحث الفصل والوصل يعد أكثر المباحث التصاقا بلسانيات النص؛ لأنه يصف اتساق الجمل والبنيات النصية، هذا ما جعل عمر أبو خرمة يحصر نقاط التوافق بين ما تركه الجرجاني وما هو موجود في الدرس المعاصر في مبحث الفصل والوصل فقط! وما عداه فهي نظرة جديدة للنحو التقليدي.(9) على أن هذه الدعوى على جديتها أغفلت أو تغافلت ما أشار إليه الجرجاني من قضايا نصية مثل الإحالة والعطف والحذف والتكرار.

ولم يكتف الجرجاني بالحديث عن عطف الكلمات والمركبات الإسنادية؛ بل عرض لعطف جمل قد تكون متباعدة على سطح النص لكنها مترابطة لقرائن أخرى، إذ «مما يقل نظر الناس فيه من أمر العطف أنه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها، ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان»(10). وهكذا تحدث الجرجاني على قواعد نصية لا جملية، وهو جانب على قدر كبير من الأهمية، إذ تثبت الدراسات المعاصرة دور حروف الربط أو التضام في وحدة النص وتماسكه وربط أوله بآخره.

أما ما يخص الإحالة فلم يفصّل الجرجاني القول فيها، كما أنه لم يقصدها لذاتها بل أشار إليها أثناء حديثه عن الحال، من ذلك قوله: جاءني زيد وهو مسرع. فهذا المثال شبيه جدا بما قدمته رقية حسن: (11)

اغسل وانزع نوى ست تفاحات، ضعها في طبق مقاوم للنار.

جاءني زيد وهو مسرع.

والتقدير: ... ضع ست تفاحات ...

...زيد مسرع

قد يذهب شخص إلى أن الجرجاني تحدث عن واو الحال، لا عن أداة ربط بين جملتين أو أكثر، نعم. لكن هذا لا يخرجها عن كونها «مجتلبة لضم جملة إلى جملة».(12) ومن ثمة النص لأن المضمر بمنزلة الصريح؛ فإذا وضع المتكلم كلمة تفاحات بدلا من الضمير، فإن الرابط هنا هو تكرار كلمة تفاحات عوضا عنه(13). وما قيل في المثال الأول ينطبق على المثال الذي أورده الجرجاني، «ذلك أنك إذا أعدت ذكر زيد فجئت بضميره المنفصل المرفوع كان بمنزلة أن تعيد اسمه صريحا»(14)، طالما أن الضمير لا يُعرف إلا بالرجوع إلى أصله الدلالي.

وتحدث الجرجاني عن التكرار وهو من وسائل الاتساق في لسانيات النص ؛ لأنه يُدرس في إطار أوسع من الجملة. بيد أن عالمنا لم يتكلم عن دوره في لحمة النص؛ بل على العكس ذهب إلى أن التكرار «أفاد قوة لكونه مستأنفا من حيث وَضَعَهُ وضعا لا يحتاج فيه إلى تذكر ما قبله، وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام»(15)، في حين تذهب رقية حسن إلى أن للتكرار أهمية في ربط أواصر النص معجميا.

ومما لا يمكن أن يفسّر كذلك إلا في إطار بنية أكبر من الجملة التعريف والتنكير، وهو باب دقيق المسلك يعتمد على ذاكرة القارئ لشيء سبق ذكره. ومثاله: «قول ابن البواب: [مجزوء الوافر]

وَإِنْ قَتَلَ الهَوَى رَجُلاً فَإِنِّي ذَلِكَ الرَجُلُ

فقد جُمعت الإشارة والتعريف في قوله: [فإنّي] ذلك الرجل».(16) وهذه القاعدة معروفة في النحو متداولة في كلام العرب، فإذا ذكرت نكرة ثم أعيدت مرة ثانية فإنها تعرّف كما في قوله عز وجل:(كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) [المزمل15-16] وهو يتقاطع مع المثال الذي أوردته رقية حسن:

- لا تذهب الآن، فالقطار قد وصل = Don't go now, the train is coming

فالمتكلم استخدم أداة التعريف "The" للإحالة إلى قطار معروف لدى المتكلم

والسـامع قـد سـبق الحـديث عنـه.(17) فجـل أقـوال المتكلمـين تعتمـد عـلى معـارفهم المشتركة،مسبقة كانت أم حاضرة (السياق اللغوي وغير اللغوي).

ومن وسائل الاتساق التي أكد عليها علماء النص المعاصرون وقبلهما الجرجاني الحذف، وقد مثَّل له بقول البحتري: [البسيط]

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ كَرَمًا وَلَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ

فالأصل: لو شئت أن تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، ثم حُذف ذلك من الأول استغناءً بدلالته في الثاني عليه، وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبدا لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك.(18) وهذا التعليق طريف يبدي فيه صاحبه دور الحذف في إثارة المتلقي لمعرفة المحذوف، كما أنه يشير إلى دور الحذف في ربط أجزاء الملفوظ بعضها ببعض. ولقد أولى الجرجاني عناية فائقة بالمقام في معرفة العنصر المحذوف؛ من ذلك ما أورده عن الحذف في «قول الشاعر: [الخفيف]

قَالَ لِي كَيْفَ أَنْتَ، قُلْتُ عَلِيلٌ سَهَرٌ دَائِمٌ، وَهَمٌّ ثَقِيلٌ

لما كان في العادة إذا قيل للرجل: كيف أنت فقال عليل. أن يُسأل ثانيا فيقال ما بك؟ وما علتك؟ قُدِّر كأنه قد قيل له ذلك فأتى بقوله سهر دائم جوابا عن هذا السؤال المفهوم من فحوى الحال».(19) فحقق مقبوليته بوصفه نصا أدى وظيفته الإبلاغية.

لقد أبدع الجرجاني في نظريته ، وتحدث - إذاً- عن كثير من وسائل التماسك النحوي والدلالي للنظم (الكلام/النص)؛ بل إنه يتجاوز ذلك إلى الحديث عن السياق أو المقام؛ إذ كثيرا ما يربط الكلام بسياقه وظروفه المحيطة، كما يحاول استكناه قصدية المتكلم من خلال التركيب وافتراض خلفية المتلقي، وأثر كل ذلك في عمليتي التوصيل والتواصل. وهو في كل هذا ينطلق من المستويات اللغوية للملفوظ ليصنع مستواه التداولي.

-2. وحدة القصيدة لدى حازم القرطاجني:

من الجدير بالذكر أن القرطاجني لم يكن أول من تحدث عن وحدة القصيدة وتلاحم أجزائها، فقد سبقه إلى ذلك الجاحظ وغيره؛ إذ إن تماسك القصيدة وتناسقها ميزة الشاعر المجيد كما يذهب إلى ذلك الجاحظ بقوله:« أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا»(20)، بحيث لا يشعر سامعه بتفكك في المبنى أو تقهقر في المعنى، إذ كله يكمل بعضه بعضا ويعضد بعضه بعضا، غير أن أبرز من فصّل الحديث في هذه القضية ودقّق النظر فيها حازم القرطاجني؛ حيث أفرده بمبحث مستقل أسماه طرق العلم بإحكام مباني الفصول وتحسين هيآتها ووصل بعضها ببعض. ولم يكتف بذلك؛ بل أشار في معرض حديثه عن القوى الفكرية والاهتداءات الخاطرية التي تسهم في جمال نظم القصيدة إلى ثلاثة أمور تتصل بالوحدة الكلية للقصيدة:

- انسجام المعاني وتناغم الفصول بعضها ببعض؛ وذلك باختيار المعاني المناسبة لما قبلها وما بعدها، وحسن التخلص في التنقل بين الأغراض الشعرية دون تكلف أو خلل يمس بنية القصيدة أو معناها، وهذا يكون «بالقوة على تصور صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن وكيف يكون إنشاؤها أفضل من جهة وَضْع بعض المعاني والأبيات والفصول من بعض، بالنظر إلى صدر القصيدة ومنعطفها من نسيب إلى مدح، وبالنظر إلى ما يجعل خاتمتها إن كانت محتاجة إلى شيء معين في ذلك»(21). فالقصيدة قد تحوي أغراضا متنوعة وأساليب متباينة، لكن براعة الشاعر وإجادته كفيلتان بعدم تبيان ذلك، بحيث ينسلخ من غرض إلى غرض، وينساب من معنى إلى معنى دون أن نشعر، وهذا مما لا يتأتى إلا للشاعر المجيد.

- ربط أول القصيدة بآخرها ونهايتها ببدايتها فتصبح كالكائن الحي تتفاعل أبياتها وتترابط عباراتها لتشكل كلا متوحدا، فـ«القوة على التخيل في تسيير تلك العبارات متزنة، وبناء مباديها على نهاياتها ونهاياتها على مباديها»(22)، مما يجيد نظم الشعر وتتضح فيه

رسالته وتؤدى على أكمل وجه.

- التحام أجزاء القصيدة وتناغم فصولها، فلا خلل ولا اضطراب في بناء القصيدة، فما من بيت أو فصل إلا وله وشائج قربى مع ما قبله وما بعده سواء أكانت هذه القرابة لفظية أم معنوية، فعلى الشاعر أن يمتلك «القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض وإلصاق بعض الكلام ببعض على الوجوه التي لا تجد النفوس منها نبوة».(23) والقارئ أو المخاطَب هو الذي يحكم على انسجام النص من عدمه ووحدته من تفككه؛ إذ يحاول الربط بين قضاياه ومواضيعه مستخدما معرفته بالعالم، فإن وُفِّقَ في ذلك عدّ النص متسقا ومنسجما وإذا أبى النص أن يكون كلا متحدا عزفت عنه نفسه وابتعدت.

إنّ الأصل في القصيدة الجيدة أن تكون كالعبارة الواحدة، تترابط عناصرها الصغرى والكبرى، وتتآلف فصولها وبنياتها لتكون كلا مكتملا يشد بعضها بعضا «فالأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المقطعة من الكلام المؤلف، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم من الحروف، والقصائد المؤتلفة من الفصول نظائر العبارات المؤتلفة من الألفاظ».(24)

ويستطرد القرطاجني في حديثه عن اتساق القصيدة وانسجامها، ضمن عرضه لما يمكن أن يجيد مواد الفصل، فمن ذلك مثلا:«أن تكون حسنة الاطراد، غير متخاذلة النسج، غير متميز بعضها عن بعض التمييز الذي يجعل كل بيت كأنه منحاز بنفسه لا يشمله وغيره من الأبيات بنية لفظية أو معنوية، يتنزل بها منزلة الصدر من العجز أو العجز من الصدر»(25)،إذ يفترض في الأبيات أن تترابط شكليا بتكرار أو إحالة أو تضام، ومعنويا بأن لا يكتمل معنى البيت إلا بما يليه، فضلا عن العلاقات الدلالية بين الكلمات والعبارات. وعليه أجْمل القرطاجني هذه العلاقات فيما يأتي:(26)

- التقابل الكلي أو الجزئي.
- الاقتضاء؛ بأن يكون بعض الأبيات مسببة لبعض أو مفسرة لها.
- المحاكاة؛ كأن يحاكيه في البناء أو المعنى.

أما الفصول فيتصل بعضها ببعض على أربعة أضرب:(27)

1- ضرب متصل العبارة (متسق)، والغرض (منسجم): وهو الذي يكون فيه لآخر الفصل بأول الفصل الذي يتلوه علقة من جهة الغرض، وارتباط من جهة العبارة؛ بأن يكون بعض الألفاظ التي في الآخر من جهة الإسناد والربط.

2- ضرب متصل الغرض (منسجم) ومنفصل العبارة، بحيث يبدو فيه الفصل مستقلا عن غيره بنويا، لكن هناك علاقات معنوية وفكرية تربطه بما قبله.

3- ضرب متصل العبارة دون الغرض، فهذا منحط في الصناعة؛ لأن الترابط الرصفي وحده لا يكفي لأداء رسالة مقبولة.

4- ضرب منفصل العبارة والغرض.

فالضربان الأول والأخير لا يحتاجان إلى إعمال عقل أو تقديم برهان مادام الاتساقُ أو انعدامُه ظاهرا من الوهلة الأولى للمتلقي. أما الضربان الثاني والثالث فقد تحدث عنهما اللسانيون المعاصرون(*) أثناء عرضهما لما يمكن أن يكون به الملفوظ نصا.

ولم يكتف القرطاجني بالتنظير للاتساق والانسجام؛ بل راح يطبق على قصيدة أغالب فيكَ الشوق والشوق أغلب للمتنبي، رابطا بين فصولها ربطا متناغما تتكامل، فيه الفصول وتتعاضد لتحقق لحمة النص الشكلية والدلالية، فيؤدي رسالته الشعرية. حيث وفّق المتنبي في ذلك ف«اطرد له الكلام في جميع ذلك أحسن اطراد، وانتقل في جميع ذلك من الشيء إلى ما يناسبه وإلى ما هو منه بسبب ويجمعه وإياه غرضٌ. فكان الكلام بذلك مرتبا أحسن ترتيب ومفصّلا أحسن تفصيل وموضوعا بعضه من بعض أحكم وضع »(28)

وحريٌّ بالإشارة أن كثيرا من الألفاظ التي وظفها القرطاجني يمكن أن تستثمر لبناء صرح لسانيات نصية عربية متأصلة في مفاهيمها ومصطلحاتها، فقد وردت في كتابه مصطلحات مهمة نحو: الاتساق، والارتباط، والوصل، والإحكام، والبناء والتحجيل. حيث يقول عن البعد الحجاجي في النص الشعري: «ولا يخلو المعنى الذي يقصد تحلية الفصل به وتحجيله من أن يكون مترامیا إلى ما ترامى إليه بعضها، فيورد على جهة الاستدلال على ما قبله أو على جهة التمثيل»(29)

ويمكن القول إن القرطاجني سبق عصره بإفاضته في الحديث عن نصية القصيدة الشعرية، وتعمقه في استبطان أنماط العلاقات بين الأبيات والفصول وما يكتنف اللغة الشعرية من انسجام باطني لا يدرك دون تأويل من المتلقي واستحضار لمقصدية المبدع حتى إنه يضاهي ما توصل إليه علماء النص. ولم يقتصر- حديث علماء العربية عن ترابط النصوص العادية والفنية - مثلما فعل الجرجاني والقرطاجني- بل امتد ليشمل أسرار الإعجاز في الخطاب القرآني.

-3. التناسب من خلال كتاب البرهان للزركشي:

لم يكن الحديث عن تماسك النص، وارتباط بعضه ببعض، مقتصرا على أبحاث البلاغيين ودراسات النقاد القدامى في مقاربتهم للنص الشعري وتحليلهم للكلام العادي؛ بل وُجد كذلك في كتب التفسير وعلوم القرآن بصورة أجلى وتحليل أدق.(*) ومن أوائل من تحدث عن ترابط الآيات والسور بدر الدين الزركشي، إذ راح يفصّل أهمية هذا الموضوع وجدّته ويؤصّل لوجوده وطرائقه، بادئا بتناسب فواتح الآي وخواتمها، ثم أسرار ترتيب سور القرآن، كما أشار إلى قضايا نحوية تمس النص أكثر من الجملة نحو: الحذف، والإحالة، وائتلاف الفواصل القرآنية.

فالزركشي- تعرض إلى العلاقات الدلالية والمعنوية التي تربط بين فواتح الآي وخواتمها، إذ لا بد من «معنىً ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسي- أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهني: كالسبب والمسبب، والنظيرين، والضدين ونحوه، أو التلازم الخارجي: كالمُرَتَب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر. وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء».(30)

يوضح القول السابق جوانب كثيرة من أنماط العلاقات بين بداية الآية ونهايتها، من ذلك الرابط الحسي في الواقع والتأليف العقلي في الذهن والنسج التصوري في الخيال. فهذه الأمور من شأنها أن تُثْبِت المتشاكلات، وتؤلّف المتماثلات، وتقرّب بين المتباعدات، وتُزاوج بين المتنافرات. ولم يكتف الزركشي بذلك فقد حدد صور التلازم الذهني، وقدم

دليلا منطقيا على ترتيب الخطاب القرآني، خاصة ترتيبه الزمني من حيث الحدوث، ثم موازاة ذلك في الحديث، ويختتم قوله بالتأكيد على أهمية هذه العلاقات في لحمة النص القرآني وتوحده، وهذا مناط اهتمام لسانيات النص وهدفها، فتحليل الزركشي- يتقاطع مع مفهومي الانسجام والاتساق لدى النصانيين.

وبعدما تحدث الزركشي عن ربط أول الآية بآخرها، يوسع دائرة التماسك لتشمل الآية وعلاقتها بما قبلها أو بعدها، معتمدا في ذلك على معطيات بنيوية وقضايا دلالية ومقتضيات سياقية تداولية. وله في هذا الأمر مقولة رائدة هذا نصها:«ذكر الآية بعد الأخرى، إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح. وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير، أو الاعتراض والتشديد، وهذا لا كلام فيه. وإما أن لا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها على خلاف النوع المبدوء به. فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم أو لا»(31)، وهذا مما لا يُعْتَمَدُ فيه على المنجز اللغوي وحده؛ بل توظف فيه معرفة العالم والسياق وملابساته، فكثير من الآيات تبدو منفصلة دلاليا متمايزة معنويا حتَّى إذا أعمل القارئ ذهنه للتقريب بينها وافترض لها مقاما عَلِمَ مُرادها وجَبَرَ كسرها، فتواسقت لديه الآيات وتجاذبت، وتوافقت معانيها وتواشجت.

فمما ظهر اتساقه وجَمُلَ انسجامه قول الله عز وجل:(يَسْـئَلُونَكَ عَنِ الَاهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَاتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا) [البقرة:189]. فقد يسأل سائل عن سبب العطف بين أحكام الأهلة وحكم إتيان البيوت، ويذكر الزركشي - من ضمن ما يذكره- أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم منزله من الباب الأمامي؛ بل يدخلون من الباب الخلفي.(32) يُظْهِرُ التحليل السابق من قول الزركشي استثماره لمعرفته بالعالم في الحكم على انسجام النص، فقد وظف معرفته لعقلية الجماعة وديدنهم في مواسم الحج.

إذاً تتناسب الآيات بعضها مع بعض إما عن طريق الترابط الشكلي بالعطف مثلا، وإما أن «لا تكون معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهي قرائن

معنوية مؤذنة بالربط. والأول مزج لفظي وهذا مزج معنوي، تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني (33). ويتقاطع مفهوم المزج اللفظي مع مفهوم الاتساق في لسانيات النص من جهة، ومفهوم المزج المعنوي مع مفهوم الانسجام من جهة أخرى، ويتماثل تأويل الزركشي مع تحليل براون ويول(Broun & Yule) لنصوص غير متسقة لكنها منسجمة في بنيتها العميقة، فمثل هذه النصوص والخطابات تنبئ بعدم وجود رابط مباشر بين الجملة الأولى والثانية، لكن القارئ العادي يفترض وجود علاقات معنوية عميقة قائمة بين هذه الجمل تجعل منها نصا.(34)

ويتحدث الزركشي أثناء عرضه صورَ تناسب الآيات في السورة إلى دور الضمير وإحالته إلى السابق أو اللاحق، منبها على دور المتلقي في تفسير ذلك(35)؛ فالسامع أو القارئ يبحث عن مرجع الضمير طلبا لدلالته، وهذا ما يجعله ينسج خيوط النص بإحكام. ولم يغفل الزركشي ارتباط أول السورة بآخرها لكون الاتحاد الذاتي من شروط البنية التي تضمن تفاعلها وأداء وظيفتها وليست الآيات بوجه من الوجوه سوى عناصر لتلك البنية القرآنية قائلا: « ومن أسراره مناسبة فواتح السور وخواتمها. وتأمل سورة القصص وبداءتها بقصة مبدأ أمر موسى ونصرته وقوله(فلن أكون ظهيرا للمجرمين) وخروجه من وطنه ونصرته وإسعافه بالمكالمة، وختمها بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بألا يكون ظهيرا للكافرين، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعودته إليها بقوله(إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)» (36)

وصفوة القول إن نصوص علماء العربية وتحليلاتهم تحتمل معنىً واحدا لا يقبل التأويل هو وجود جهود قيمة وجذور قوية للسانيات النص في الموروث اللغوي والنقدي العربي. لكن هل تكفي هذه المحاولات المترامية أشتاتا وفرادى لإقامة نظرية قادرة على مقاربة نصوص حديثة.

الهوامـــش و المراجـــع

(1)ينظر محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية- تأسيس نحو النص، 25/1.

(2)ينظر محمد الصغير بناني، "مفهوم النص عند المنظرين القدامى"، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها –جامعة الجزائر، العدد 12، شعبان 1418هـ-ديسمبر 1997م، ص85-86.

(3)التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1416هـ-1995م، ص241..

(4)عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله محمد عبده ومحمد محمود التركزي الشنقيطي وعلق عليه محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط3، 1422 هـ -2001م، ص70.

(5)المرجع نفسه، ص ن.

(6)المرجع نفسه، ص240.

(7)أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين- الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، ط2، 1971، ص497.

(8)الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص70.

(9)ينظر، نحو النص نقد النظرية ..وبناء أخرى ، ص44.

(10)الجرجاني، المرجع السابق، ص165.

(11)ينظر إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة، عمان-الأردن، ط1، 1427هـ - 2007م، ص228-227.

(12)الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص149.

(13) Halliday&Rukaya Hassan, Cohesion in English, P20.

نقلا عن إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، ص228.

(14)الجرجاني، المرجع السابق، ص149.

(15) الجرجاني المرجع السابق، ص ن.
(16)المرجع نفسه، ص77.
(17) Halliday&Rukaya Hassan, Cohesion in English, P 32.
نقلا عن إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، ص230.
(18)ينظر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص118.
(19)المرجع نفسه، ص162.
(20) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1419هـ-1998م، 55/1.
(21)حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط2 ،1981، ص200.
(22)المرجع نفسه، ص ن.
(23)المرجع نفسه، ص 200
(24)المرجع نفسه، ص ن.
(25)المرجع نفسه، ص288.
(26)ينظر المرجع نفسه، ص290.
(27)ينظر المرجع نفسه، ص291،290.

(*) ينظر فان دايك، النص والسياق- استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق – المغرب، (دط)، 2000، ص74، 75. جيليان براون وجورج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض – السعودية، (دط)، (دت)، ص272 وما بعدها.
(28)ينظر القرطاجني منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص299،298.
(29)المرجع نفسه، ص300.

(*) على سبيل المثال لا الحصر فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. وخير الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، سيد قطب: في ظلال القرآن.

(30) الزركشي البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، (دط) ،(دت)، 1/35-36.

(31) المرجع نفسه، 1/ 40.

(32)ينظر المرجع نفسه، ص40،41.

(33)المرجع نفسه، ص46.

(34)ينظر : الزركشي جيليان براون وجورج يول، تحليل الخطاب، ص234،235.

(35) ينظر البرهان في علوم القرآن، 3/ 150،151، 4/41،25.

(36) المرجع نفسه، 1/185،186.